مناقشات

نكتب من اجل الحرية

بقلم : خليل احمد خليل

في الحقيقة حينما نناقش يتغلب صوتنا الشخصي على صوتنا العلمي ، وهذا ناتج كما نعتقد عن ميلنا خاصة في مرحلة الشباب الى تأكيد وجودنا والدفاع عن حريتنا اكثر من تقصي ابعادها وتأمل جذورها ومضامينها . هذه المرحلة المليئة بالحماس لها رجع خاص وافاق تتخطى نطاق العقل ، حيث الرغبات الربيعية تنسج وجها جديداً لحضورنا الانساني. انا ممن يؤمنون بالحوار. في الحياة الجماعية يتسنى للفرد ان يتخلص من اخطاء كثيرة ، فاذن النقاش كابح، الا ان الكبح قد يقضي على الجموح الذي نحتاج اليه في مرحلة تطورنا الراهنة . هذا الجموح الذي يفترض التخطي الشامل لمشاكلنا المريرة . فبدرجة اولى ، نحن لا نستطيع ان نؤمن بان اصالتنا العربية قائمة على التصاقنا بشكل معين من اشكال الحياة القديمة . ان انفصال الموسيقى عن الشعر ، لا يعني سوى ان التجربة الموسيقية تختلف عن التجربة الشعرية . وان النقاد في الشعر لا يحدثوننا ابدا عن تجربة الشعراء الموسيقية . وقد يتبادر الى الذهن ان الحديث عن الاوزان والتفاعيل مهم جدا ، الا ان التوازن القائم بين الشكل والمحتوى لا يعني ان الموسيقى ضرورية في الشعر . لكن هل تخلو اللغة من الموسيقى وخاصة لغتنا العربية ؟ طبعا لا . اذا فيحق للشاعر الذي يريد ان ينقل تجربة شعرية ، ان يهمل الطريقة الميكانيكية التي كانت تنسجم مع متطلبات عصور مضت ، وان يتلاعب بامكانياته الشعرية ويقدم لنا الشكل الذي يحلو له . ان الانكماش والتمسك بالشكل التقليدي دليل على ترددنا المستمر في الاختيار . صحيح ان الانسان يختار باستمرار وهذا الاختيار يفترض عودته الى قيم اجتماعية والى انفتاح شخصي يتبرعم فكريا ويظهر عمليا كعمل مبتكر. ان للانسان الحق في الابتكار وان اسطورة البدعة التي ما تزال تنخر ضمنيا او علنيا اذهان الكثيرين في بلادنا هي دليل على ايماننا ايمانا كافيا بمقدرة الانسان على التقدم والابداع ، ونحن بالتالي ما نزال في مرحلة دينية من حيث التطور الثقافي ـ عدا بعض الذين شذوا بسبب جهدهم الفردي ـ . فكلمة الاستاذ خوري في عدد الاداب الممتاز « بعض الاصالة العربية .. يا اصحاب الشعر الحديث » هي تعبير صادق عما يختلج في نفوس الكثيرين ، بعد ان صار التقليد وسيلة في ادعاء الابتكار . الا اننا نفكر، بعكس الاستاذ خوري ، ان المهاودة والمحاولة في المصالحة بين التقليدي والابداعي هي من ميزات العصور الوسطى واننا كعرب مطالبين في السير نحو عالم جديد ، لا بد لنا ان ننضج تجريبيا حتى نؤول الى حالة فكرية جديدة تتناسب مع حاجاتنا الوجودية والاشتراكية . ان العودة الى الماضي او الرجوع لا يؤدي غالبا الا الى تكريس خاص للرجعية . اننا مطالبون بتخطي حياتنا القديمة ، وان كان التخطي مثار كل الفضائح . انني اقدر الاستاذ خوري واشكره على كلمته اللطيفة وارجو ان يطلع علينا باضواء جديدة فيها الشيء الكثير من ربيعنا الشرقي المنتظر .

اما عن الجهل ، فلا ادعي انني عالم بل احاول ذلك . وانا لست ممن يستخدمون وسيلة « جهّل غيرك » لكن جهل الاخرين يجب ان يكشف ، خاصة ان العلوم الانسانية الحديثة تؤكد ان المريض يتماثل الى الشفاء الذهني كلما وعى امراضه . وحتى اكون واضحا اكثر مع نفسي ومع قراء « الاداب » ، اوضح انني اكتب لاتحرر ، لانخطى نفسي ولاحظى بها في كاباني . فلست ابغي الدفاع « الايديولوجي » عن اي شخص ، الا ان التخبط والعشوائية السائدين في بلادنا وعدم احترام حدود الاشخاص وتقدير حرياتهم وبالتالي مزج السياسة بالشعر بالاشتراكية بالعروبة بالاعلام الخ.. وانتاج لوحة خامة لا تدل الا على مدى ضياعنا الحضاري وتشردنا الذهني وعدم نضجنا السياسي . كل هذه العوامل تدفعني الى الكتابة والرد . انا لا ادافع عن اي اتجاه في الشعر ، الا ان من حقي ان أقول رأيي ، وذلك لا يعني انني أؤسس دينا او اقيم مذهبا ، فما نحتاج اليه حقا هو الانضباط وتقدير الانسان في مغامرته ويجب ان نفهم كل شيء مغامرة ومحاولة . وان الفشل والنجاح هما وجها الطريق . مع الاسف اعود مرة ثانية الى الجهل ، رغم ان الالحاح مضر تربويا ، الا انني اجدني مطالبا . فالجهل «الشعر والنثر والجهل» يعني جهل الاستاذ صبري حافظ بحقيقة الحركة الشعرية النثرية من ناحية ويعني جهله بحقيقة محتوى هذه الاعمال الفنية . اما آلاخ الاستاذ مروان الخاطري فقد اجاد حينما رد ، لان هذا يعني اننا نحس بمسؤوليته ـ خاصة واننا مستعدون للحوار ـ اي للتعرف وتبديل مواقفنا .

اوضح للاخ الخاطري ان خلافا وقع بين عدة تيارات : التيار المتعصب للتراث العربي الاسلامي بكل ما فيه ، والتيار العربي الاشتراكي والتيار العربي المغالي في الانفتاح على الخارج والمصر على تخطي الواقع العربي كليا . ولعل انسي الحاج وانا نعتبر نفسينا متطرفين او نعتبر كذلك ، الا ان هذا لا يعني انني اتبنى كل كتابات انسي الحاج ، وهذا لا يعني ابدا انني ادافع عن ارائه التي يكتبها في « النهار » فهو وحده مسؤول عنها بالطبع . فحينما زار انسي الحاج باريس كتب في ملحق النهار ما معناه : ماذا يحدث لو ازلنا لبنان من الخريطة. وانسي متطرف، لكنه على حق في تطرفه ، اذ ان ادعاءاتنا الفارغة وجهلنا العارم ادت ببعضنا الى ان يستحيلوا ضفادع في مستنقع التاريخ . وانسي كما اعتقد رجل شريف وهو لا يهتم كما اعرف بالمشاكل السياسية بصورة رئيسية ، وهو على الاقل لم يكتب اعمالا ولا مقالات او قصائد سياسية. اما قصيدته « نشيد البلاد » المنشورة في « لن » الصادرة عام ١٩٦٠، فهي تعبير عن قرف خاص ضاق به انسي ، خاصة بعد ان كثر تجار الوطنية وصارت تباع الاسهم في البورصة . فيا آخ مروان الخاطري اهلا بك ، ونحن نعرف ان سوريا الجديدة ابدا أنجبت رجالا مهمين في الشعر : سليمان ونزار ، الا ان هذا لا يعني ان نقد هذين الشاعرين من الامور المحرمة . وهذا يفرض علينا ان نتخلص من جهلنا ، واقول لك يا سيدي بكل تواضع ان المقاطع الشعرية التي « تدعي » ان قائلها هو يوسف الخال هي في الحقيقة للشاعر انسي الحاج . واما ان تسألني هل هي لصالح الاستعمار ام لصالحنا كعرب قوميين اشتراكيين . افول لك هذه مشكلة معقدة . اذ ان التأويل يحمل شيئا من التضليل . واذا كنا نريد الدفاع عن انسي فنقول انه اراد بذلك ان يتمرد على جو المواطنة المسموم والدليل على ذلك انه اورد في قصيدته صوت هؤلاء الادعياء الذين يجيبونه « ـ خائن » . فهذا عمل مقصود ، غايته تحرير الانسان من هؤلاء التجار . وانا شخصيا ارى ان هذه هي رغبة انسي الحاج الحقيقية ، رغم انني لا اوافقه على طريقته السلبية في التعبير ـ اذ انها صعبة الفهم ، ولو عمد الى الطريقة الايجابية لتخلص من كل الاتهامات التي الصقت به وبسواه . واسأل آلاخ الخاطري هل نرضى عن كل واقعنا بكل فضلاته وخزعبلاته واوساخه الاستعمارية ؟ طبعا انت توافقني على ضرورة رفض هذا الواقع شريطة ان نعمل جديا على خلق عالم اخر ، ولعل هذا ما يحتاج اليه انسي الحاج ومعظم الضائعين في بلادنا مع شكري وتقديري .

جامعة ليون

خليل احمد خليل

رد على نقـد

بقلم : نايف شرف الدين

من المؤسف حقا ان يطلع علينا ناقد مثل السيد سمير فريد بنمط جديد من النقد ، ان اتصف بشيء فانما يتصف بالهـدم والنسف والسخرية ، لا بالبناء والتقويم والجد كما تقضي مهنة النقـد الحقة .

والشيء المضحك في هذا النقد لقصة ((الـ)) هو تلخيصه الرديء جدا لها ، وعدم فهمها فهما تاما ، حيث هيأ بعمله هـذا فرصة تشويه القصة تشويها بغيضا .

ويبدأ الناقد العتيد بتلخيص القصة هكذا : ((خرج نعيم بعد خمس سنوات من السجن ساعيا الى قتل لمياء ، وهذه هي زوجة القاضي الكهل ... الخ.)) ولا اريد أن أتم بقية الكلام حيث اني مضطر للوقوف قليلا امام حقيقة تدمغ الناقد بالجهل وبقلة الفهم والتزوير المتعمد .

ان لمياء يا حضرة الناقد ، ليست زوجة القاضي ، بل هي زوجة المختار ولست ادري من اين اتيت بكلمة ((كهل)) هذه ، فبالله عليك ايها الناقد كيف يمكنك ان تحكم على قصة حكما عادلا دون ان تكون قد قرأتها قراءة جيدة ؟ حتى لقد خلطت بين القاضي والمختار .

واعود الان للقصة ملقيا عليها ضوء التلخيص الذي تستحقه : نعيم صبي يتيم فقد والديه وهو ما زال صغيرا وقد تشرد لمدة ست سنوات باحثا هنا وهناك عن لقمة عيش . وساقته الصدفة الى منزل المختار حيث من عليه هذا الاخير بعمل في زريبة المواشي . ورأته زوجة المختار فاعجبت به ولنفوذها الكبير على زوجها رقته الى رتبة مراقب عمال واسكنته مسكنا جميلا . وفي احدى الليالي ، ونعيم مستلق في غرفته دخلت عليه لمياء ، وبانوثتها الفائرة ومداعباتها اللذيذة وتهديدها له ان لم يطاوعها وقع المسكين في حبائلها ، فلم يستطع أن يقاوم جمالها او أرهابها له بتخويفه من العودة لحياة التشرد والشقاء . وتشاء الصدف ان يعود المختار من رحلته فجر احدى الليالي في اللحظة التي كان بها نعيم يهم بمغادرة غرفة لمياء ويرتبك ويقع على الارض فيحدث ذلك صدى في ارجاء المنزل . وعلى الفور تصرخ لمياء باعلى صوتها مستنجدة بالخدم لينقذوها من نعيم مدعية أنه يريد اغتصابها محاولة بذلك تبرئة نفسها. ويقيد نعيم بالحبال ويرمى في ساحة الزريبة ويجتمع حوله أهل البلدة ويمطرونه بسيل من شتائمهم تزلفا للمختار الذي يقيدهم بديـون لا يستطيعون اداءها ، لذا فهم يخافونه .. بل يحاولون دوما استرضاءه . ويصمم نعيم بينه وبين نفسه على قول الحقيقة للقاضي ولكنه نتيجة تردده وعدم جرأته لا يقول شيئا من الحقيقة ، ويكتفي بطلب الرحمة ، ويحكم عليه بالسجن خمس سنوات . وبعد انقضاء مدة الحبس يخرج مصمما على قتل لمياء ، بينما تقوم هي باحياء عيد ميلادها . ومرة اخرى ينتابه التردد وتخونه الجرأة ويتقاذفه حبه القديم للمياء فيمر موكب لمياء بستم ويغادر نعيم كمينه وهو يجفف دموع القهر .

هذا هو ملخص القصة التي قال عنها حضرة الناقد انها ((حدوتة)) وعن كاتبها انه ((يعيش في فراغ فكري عظيم ، عليه اذا اراد ان يفعـل شيئا ان يملأه بما يصير معه كاتبا ذا معنى)) .

كنت اود لو تفضل حضرة الناقد العتيد فشرح لنا هذا الفراغ الذي يدعي انني اعيش فيه . وما الشيء الذي املأه به لاصير كاتبا ذا معنى.

ان النقد هو عملية تنقيب جادة تؤدي الى اظهار القيم الجمالية والفنية من جهة ، والى اظهار المساوىء من جهة اخرى ، وفي آن واحد، وبصورة خالية من الاحقاد ودافعة نحو التقويم والاصلاح والبناء الفني للقصة . وهذا ما لم يفعله الناقد .

واعود الان للقصة : أن شخصية نعيم بكل ابعادها وجوانبها شخصية موجودة في مجتمعنا ، فهي ترينا عن كثب ثمرة الفقر اللعين ، واوضاع المجتمع الفاسدة التي تخرج الى الحياة اناسـا ضعـاف الشخصية مترددين عديمي الجرأة يتسكعون هنا وهناك ليحصلوا علـى خبزهم المزوج بالذل والقذارة . فهم لذلك سهلو القياد متقلبو الشعور والعاطفة اذا سقطوا في محنة لا يعرفون كيف يتخلصون منها .

وامثال نعيم هذا لا بد ان يكونوا دائما وابدا ضحية الطبقة العفنة التي يمثلها المختار وزوجته لمياء . فهذه المرأة الخاطئة بالوراثة لم يكن نعيم ضحيتها الاولى ، بل كان هناك ضحايا عدة قبله وسيكون ، ايضا ، ضحايا عدة بعده ، كما يتبين في القصة . وهذا الطراز من النسـاء تراه دائما يحصل على ما يريد ويمارس هواياته الشاذة بصورة علنيـة خالية من كل خلق .

ان المختار ـ وقد اتخذته نموذجا لهذه الطبقة الفاسدة ـ كـان يعلم ان زوجته تخونه مع اكثر خدمه ، ولكنه كان يتجاهل ذلك طالما انه يجري بعيدا عن نظره . والا لماذا لم يطلق النار على نعيم عندما ضبطـه في غرفة نوم لمياء زوجته ؟ وهل هو صدق ادعاء زوجته فعلا ؟

ان المختار رجل جبان . كل هذه الطبقة تتميز بجبن مزمن . والسلاح الوحيد الذي يجيدون استعماله هو الخداع والطعن بالظهـر بخنجر اصفرهم الرنان .

بقي ان نقف قليلا عند بعض الناس امثال الحاج محمود ـ فـي القصة طبعا ـ الذي لا يتوانى عن المراوغة والدناءة والتملص لصالح المختار وهو عالم بان نعيما عشيق لمياء منذ مدة . ولكنه لا يجرؤ ان يدافع عن هذا المسكين ، بل يسارع ليكيل له الشتائم مداهنة منه وخبثا، لانه مدين للمختار بمال لا يستطيع سداده .

وبعد يا حضرة الناقد هل الممت الان بالقصة وهدفها ؟ ان كنت قد فعلت فجزاك الله خيرا . وان كنت ما زلت عند رأيك بالقصة فاسمع نصيحتي وتخل عن مهنة النقد لانها ستجلب لك المتاعب ووجع الرأس !

الكويت — نايف شرف الدين

آخر منشورات

دار الاداب ـ بيروت

ق.ل

- دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي
  للدكتور عبد الرحمن بدوي ٣٥٠
- تجديد رسالة الغفران لخليل الهنداوي ٢٥٠
- جومبي (رواية) لاديب نحوي ١٢٥
- الخيل والنساء (قصص)
  للدكتور عبد السلام العجيلي ٢٠٠
- رحماك يا دمشق (قصص)
  للدكتور سهيل ادريس ٢٠٠

قصص العدد الماضي

يقلم : منير العكش

١) ـ رزئت القصة القصيرة في العالم العربي بفيض من فورات الاغرار ، ولاذ بها المهزومون من تجربة الشعر والفنون الادبية الاخرى ، يتنفسون بها على الناس ، ويرخصون هذا اللون من الابداع ويتبذلونه.

كان بكورة العهد بالقصة القصيرة ، يسرت لاصحاب المواهب الضحلة ان ينسلوا اليها ودفعت بالمتكسبين من عشاق البطولة « الكيخوية » الى ترذيل هذا اللون من الابداع وتجويف مفهوماته الجادة ، واشاعة الفوضى فيه .

وقد تعرضت القصة القصيرة والشعر الحديث لهذا الداء معا ، ثم استفحل الدرب للشعر او كاد ، وطرد المرتزقة من حلبته ، فلم يبق الا صارم او ضبارم ، لما توفرت له من المواهب الحية والجهد المثمر،والمعاناة الطويلة ، والنقد الصريح الجاد ، عد عن ذلك الى المنافسة الخطيرةالتي هددت تجربة الشعر الحديث بالموت ، وحثتها على الصقل والتجويد .

اما القصة القصيرة فما توفر لها ذلك ، وما زالت تخب في سراويلها البالية ، وتمور في اوزاع من المفهومات المتناقضة المبهمة ، يستوي في ذلك جماعة القص وجماعة النقد .

ومن الواضح ان ارخص الفنون الادبية في عدد الاداب الاخر ما سيق الى باب القصة القصيرة ، فالتربة التي بسقت فيها القصص الثلاث متنافرة من نحو البناء العضوي والنفسي ، ومن نحو المنطلقات النظرية لهذا الفن .

٢) ـ فقصة « دخان أبيض للمداخن » رمز للاجتماعات التي تفصل بين عهدين ، واذان من المجمع المسكوني بانتخاب « بابا » جديد ، وقد احسن الفاص في التقاط الرمز ، والتنبيه عليه في خلال عرضه ، وخلاصة القصة :

« ان فريال نالت الثانوية العامة، فمنعها والدها من دخول الجامعة، واستنفر لذلك مجلس العائلة لبحث المشكلة ، وفي انعقاد المجلس تهجم فريال كالاسد ! وتلقى خطبة عصماء في تحرير المرأة ، فيتخاذل المجمع امامها ـ وان لم يصفق . ثم تذهب فريال الى الجامعة ، وتعود الى البيت . ويتأملها الاهل طويلا ، فلا يجدون اثرا لعض الثعالب والذئاب!»

والقصة امتداد لفن الروائي المحبوب !! احسان عبد القدوس ، الذي طالما آذتنا جعجعته من قبل ، وطالما عاش المراهقون في خمسينات القرن يعلفون سخفه ومغالطه ، وهي صورة لهجرة العالم العربي المزيفة الى المدنية في اقبح صورها ، وابعدها عن التطور الانساني . وقد جاءت القصة نمطا للنزق والتمرد ، واسلوبا للتصور الخاطىء لمشكلة المرأة من نحو ، وحلها من نحو اخر .

وما كان يعنينا هذا اللون من التفكير لولا ان انعكس على البناء الفني للقصة ، فالبطل هو القاص ، وليست « فريال » كما يلوح للعارض المستعجل ، فهي مغمورة ، لا يبين لها صوت لولا حديثها الخافت الذي استعرضت فيه اترابها ولداتها وجيرانها ، ممن تيسر لهن دخول الجامعة. وهي انثى كوكبها القاص من جبلة نزقة تشف عن رؤياه لسرحة مشكلته في ساعة المعاناة الكثيفة بالمواقف الحارة ، وخلع عليها كثيرا من نفسه وشعوره ، لذلك لا نستغرب ضياع ملامحها الجسدية والنفسية التي استغرقتها نفس القاص وجسده ، فالدفقة العاطفية طاغية على العمل الفني ، حجبت نفس فريال المزقة وراء سيل من الخطابة الحامية والكلمات المرنانة ، واقل ما بين يدينا من هذه الدفقة الخطابية :

« وتقذف في وجههم احتجاجها ، وتعلن امامهم تحررها من رجعيتهم، من سلاسلهم الصدئة ، من اغلال تقاليدهم ... ونكاد تصرخ بملء فيها : « انا حرة ... انا سيدة مصيري ... وتهب في داخلها ريح ثورية هائلة لا تقاوم تدفعها بقوة لا تقاوم .

ثم يمضي في جزء آخر :

« حرام عليكم . في بلاد الناس يهيئون الفتاة لان تكون طبيبة أو مهندسة ، أو عالمة ذرة .... اما انتم فتريدونها ضلعا كسيرا تدلون عليها دائما بالتفوق والحماية ، وآلة صماء للتفريخ ، ووعاء للجهل والفراغ ، وفارورة للطيب والسلوى التافهة » .

ولا ينسى القاص ان يستعرض على لسان البطلة تاريخ الحركة النسائية ونوابغ النساء في العالم العربي بحماسة مفرطة ، ولكنه يذهل عن عرض ذلك في المجتمعات الغربية !.

اما أبناء الفني للقصة فهو افضل الابنية الثلاثة لقصص العدد ، واكمل النماذج التي عرضت ، فالقاص متمكن من اسلوب العرض في اهلاله وحبكته وحله ، واسلوبه يجذب القارىء اليه، ويعتمد على الوصف الحسي المباشر للعواطف والاشياء ، يلمسها لمسا كحسو الطائر ، ولا يلبث طويلا عندها ليتعمقها ، كأنه منوجس على قوات الدفقة العاطفية ـ محور القصة . ولو أنه كتبها على مهلة من امره ، وهدأة من عواطفه لاحسن واجاد .

ولعل هذا النموذج من كتابة القصة القصيرة من أقدم النماذج التي عرفها الادب العربي الحديث وهو أقرب الى ما يعرف بـ « الحكاية الواقعية » .

٣) ـ اما « الحزن ... والعيون الصغيرة » ، فليست قصة ابدا ، ولا ضير عليها ، فهي تنمي الى فن ارفع من فن القصة القصيرة ، واكثر الذي افنى فيه نفسه وحسه أن يستغرقه جمود القصةالقصيرة ويشوهه. حساسية ، واظن « عبد الرفيع الجوهري » لا يريد لهذا اللون من الابداع تحديثه أقرب الى الشعر الموحي ، واتصاله بالاشياء الصغيرة مسرف في الحساسية ، فهو واع لجولان الحياة في جوانيته الحزينة ، يراقب ببصيرته المرهفة انفعالاته مع الوسط الخارجي ، ثم يخرج تلك الانفعالات في اطر لونية ، واضحة نارة ، وضبابية تارة اخرى ، وفي الحالين كليهما تجد لوحات من صناعة فنان اصيل مبدع .

لقد استطاع أن يخلق الجو الذي يريده لنفسه بوضوح ودونما مواربة ، ومن غير ما كلفة ولا صناعة ، فحين يمنح القارىء هذه الصور المنثورة المتعالية ، انما يريد ان يطلعك على سر خبيء في مطاوي الصور ونواهد الحروف ، فاللوحة عرض ظاهر ، اما السر فهو القصد المنشود. ولعله « ماما » الحزن التي عناها بقوله :

« هناك بعض الاطفال يحزنون حزن المونى ، حزنا أعمق من حزن الكبار ، ولكن اخي الصغير لا يعرف كيف يحزن ، يبكي بدموع كبيرة صافية ، ولكنه سرعان ما يتعقب فراشة حائرة في فضاء الدار او نحلة ، او حتى ذبابة فينسى دموعه ويسألني عن « ماما » هذه النحلة ، عن « بابا » هذه الفراشة ، ولكني انا لا اجد من أسأله عن « ماما» الحزن .

ان الوحدة العضوية غريبة عن هذه « الابداعة » ، فلا اتفاق بين لوحاتها في الظاهر ، والكاتب سريع القفز ، متوثب الفكرة ، جملته قصيرة محترقة ، وافكاره ينضحها من جوانية ممزقة ، لذلك لا نستغرب هذا التمزق العضوي الظاهر . ولعل سحابة الحزن التي تنتظم العمل الادبي قد اشاعت فيه وحدة نفسية قوية .

نستظهر على ذلك بوحدة الالوان التي يختارها « عبد الرفيع الجوهري » لاني استعرضت الالوان المنتشرة جميعا وذهلت . القطة : رمادية . أظافرها : مائلة نحو الزرقة . عربة السفر : طويلة مطفأة . الدرب : مظلم . الخاطر : أسود . الشعر : مائل نحو السواد ، وهي جميعا ألوان حالكة مطفأة حزينة تنتمي الى فصيلة « الزرقة » ، ولا اظن ذلك مفتعلا ، وانما أقول : ان ظاهرة الحزن قد اطفأت لونه بعفوية سمحة منسرحة .

اما البقعتان اللتان شذتا عن هذه الفصيلة ، فهما للزينة ، الاولى : قطرات من الدم القاني على يدي اخيه الصغيرتين ، والثانية : ضوء منبعث من عيني قطته الحزينة في الظلام . فهو لا يستمد ألوانه من ضوء الشمس او من مادة الحياة النابضة ، وانما يستمدها من المشاركة الوجدانية بينه وبين عيني قطته الحزينة ، او في قطرات الدم المعبرة عن

الموت في أبشع صوره .. صورة الذبح . وهاتان الصورتان مثال لتمزق الوحدة العضوية ، وطغيان الوحدة النفسية .

ان « الحزن .. والعيون الصغيرة» غنية جدا بالعواطف الرومانسية، ولا ادري لماذا يحمل بعض النقاد عصيهم على « الرومانسية » ، كأنهم يتصورونها لونا من التعبير ، او اتجاها في الادب ، او مذهبا ينهجه الفنان ، وهم لا يعلمون انها ـ بالاضافة الى ذلك جميعا ـ تعبير عن سلوك نفسي ملهوب ، ضارب في اعماق الانسان ، وليس مفروضا من الخارج . وكم يحز في نفسي ان يكون وراء هذه الظاهرة موقف فكري مسبق .

واخيرا . هل يشكل هذا العمل الفني الرائع قصة قصيرة ؟... أبدا .. انه تصور خاطىء للقصة القصيرة ... سمه ما شئت خاطرة .. ابداعه ... شعرا مطلقا ... ، ترجمة ذاتية ... لانه لا يمكن أن نطلق على عبارة مزوقة ، وصورة ملونة ، وكلمة منمنمة ، ومشاعر مضطربة ، وخواطر حزينة مترعة اسم القصة القصيرة .

٤) ـ وعلى النقيض من هذا الجو الضبابي الرائع ، وهذا الحزن المترف ، وهذه الصور الصادقة ، تقف القصة الثالثة وكأنها تقرير سياسي مسف ، يمتد في الزمان العريق الى سفربرلك » .. خمسون عاما وهذا التقرير يفور في نفس القاص ويغلي ، وخلاصته :

« ان الدولة العثمانية القذرة بعجت الاستقلال الذاتي للبنان ، وجندت « الطبيب » الشجاع في جيشها ايام الحرب العالمية الاولى لحاجتها الى الاطباء . وسيق الطبيب الى « طوبراق قلعة » فوصف مساكنها القذرة واهلها البائسين ، وامامها الذي يعد مخاليق الله للدخول الى السماء ، ومختارها الجشع ، ونساءها اللاتي استحياهن الجيش المظفر ، ثم اكد لنا ـ على عادته ـ ان عددا كبيرا من ابنائها غير شرعيين ، ووصف لنا عمله فقال : « ساعة اقضيها في الصباح على الواقف مع زبائني .. واقضي الساعات الاخرى في « اكل وشرب وطق حنك » مع رفاقي الضباط ، وليذهب الطب كعلم الى الجحيم » .

وتنتهي هذه الخلفية النفسية للقصة ، ان هذا الوصف الخارجي المتعمد ، يريد به القاص ان يهيىء لعملية اشمئزاز وقرف عام وليستطيع ان يقدم بين يدي (غايته) من هذا التقرير ما ينفذ به الى قلوب القراء. ولكن هل يوفق ؟.

بعد ذلك ، تصدر الاوامر بنقله الى « زيتون بيلي » مع رفيقه « المهرج » (شريف) الذي لا نعرف عنه سوى انه يشارك الطبيب الشجاع في كراهية بني عثمان ، وفي منتصف الطريق تبدأ الازمة ... يعترضهم مشهد « يعصر القلب عصرا » ، فوراء الصخور نهر من بول ، وبحر من قيء ، وتلال من قمل ، واسراب من ذباب نفاث في غارة وحشية على فتى دون العشرين ، اعزل من السلاح اسمه في المتن « احمد اوغلي محمد » .

ويتبين للطبيب الهمام ان الفتى فار من الجندية العثمانية ، فيسر جدا ، ويترك صديقه المهرج شريف عنده ليذهب الى المعسكر القريب ويحضر له علاجا . ويركب الحصان الذي لم يجد ركوبه في حياته (!) مع انه حدثنا من قبل انه ركب عليه « خمسة وعشرين كيلو مترا » ، وفي المعسكر القريب يقابل القائد الذي سمع عنه خلال هذه اللمحة العاجلة انه مولع بمعاشرة الفتيان ، ويقص على القائد قصة الفتى ويطلب منه العون ، ويتجهم القائد قليلا ثم يعطيه الدواء اللازم ، ولا ينسى الطبيب هنا ان يسب الدين الذي يحكم به بنو عثمان هذه البلاد . ثم يعود الى الفتى الفار ليجده ميتا ، ويدفنه مع صديقه المهرج ، في ترتيلة حلوة من كيل السباب والشتائم » .

هذا هو موجز التقرير السياسي الخطير ، وهو يشبه في المنطلق النظري حكاية « دخان ابيض للمداخن » ففي الاثنين حماسة مفرطة لموقف مسبق ، ولكن الموضوع الذي ما زلنا نعانيه الى اليوم في تلك القصة ، هو في هذا التقرير من نبش الدفاتر العتيقة ، وكلاهما يعالج قضية من زاوية شعبية متخلفة سطحية ، لا تعرف اتزانا ولا روية . ان العواطف الآنية التي اتسمت بها القصة الاولى لم تهدأ هنا ولم تعرف قرارا ، برغم قدم التجربة وعمرها الذي يكبر الاولى بخمسين عاما ، فهي عواطف مخمورة مبيتة ، ترجع الى الحرب الاولى ، لذلك فقد عانت القصة من نفس (الانفلات) العاطفي ، وارهقت بتحيز لا مبرر له ، لان المشكلة التي اراد ان ينكأ جراحها قد طواها الزمن وعفى عليها ، وغيبتها حادقات العصر السريعة المتدفقة ، ولم يبق لها من اثر الا في رؤوس الحاقدين من مخلفات ذلك العصر ، وانا اصر على ان اثارة هذه المشكلة يرجع اول ما يرجع الى الحقد ، ثم الى التناقض الملحوظ بين العنوان والسطر الذي يليه .

اما النزق والتمرد اللذان طفحت بهما نفس « فريال » فقد اضيف اليهما عند الطبيب البطل نرجسية متعالية على المشكلة ، وتقرير لموقف فكري معين ، ومسايرة لعواطف مكبوتة ، وحقد ظاهر في قلب الصور والحقائق :

فالفرار من الجندية على سبيل التمثيل جريمة تستحق الموت عند كل الشعوب ، وموقف تنفر منه النفوس الصحاح وتكرهه ، ولكن القاص لا يرى هذه الحقيقة ، بل انه يتجاوزها الى النقيض ، مسايرة لموقفه من بني عثمان ونظام حكمهم ، والامر سهل يسير ، لو يسر له شيء من التمكن في فن القصة ، ولكن حرارة الموقف لم يدع له شيئا من روية ، فالفرار حلال ومسموح به طالما انه من الجيش العثماني القذر ، ولذلك حشد لهذا الفتى المشاهد (المأساوية) الفجة (جحافل القمل والقيء ، والتيفوس والذباب والوحل والحمى والبول والتورم ومرض الفيل) وهلم جرجرة من امثال هذه المواقف المفتعلة .

ان اسلوب التعبير مستعمر بهذا الموقف المسبق ، ففي الرقعة كلها اشتات منثورة من هذه الحماسة ، ولولا طغيان هذا النمط من التفكير على اسلوب التعبير لما جاز لنا نقده ، اذ للقاص ان يرى ما يشاء وان يعتقد ما يشاء ، اما انلا يعود اليه ، اذ يبدو من الخلاف بين اسم الجندي في العنوان والمتن (« محمد اوغلي محمد » في العنوان و « احمد اوغلي محمد » في المتن) ان المؤلف قد سحب من درج وثائقه السياسية (فيشا) مقلوبا ، سيتحفنا بغيره بعد حين .

ان الاسلوب العام للقصة منصرف الى الالحاح على الجمل الخطابية وكلمات القرف المكرورة المعادة ، والصفات الكثيرة التي يبذرها في كل مكان ، فالسلطان رشاد : « السلطان ابن السلطان السلطان محمد رشاد خان » (اكثر من مرة) والامام : « يعد مخاليق الله للدخول الى السماء» (كانه راعي كنيسة) . والقائد « يحكى عنه بالسر انه مولع بمعاشرة الفتيان » ، « وانه يسوق القطعان البشرية للموت » . بالاضافة الى النقولات الكثيرة من كتب التاريخ التعليمية عن فتنة (١٨٦٠) وعن بروتوكول الشرف الذي فرضته الدول الاستعمارية على الدولة العثمانية القذرة لمنح لبنان استقلالا ذاتيا ، وعن الوطن الذي «يلعب حكامه بمقدرات الانسان ويرقصون على قبور من يرسلونهم الى الموت » ، ثم هذه الجمل الفجة من مثل ، « ما اكفركم بالله الذي باسمه تحكمون البشر » .

من ذلك يتضح ان للقاص ان يعتقد ما شاء ، اما ان ينقل ذلك الى القصة فلا بد له من ذوق ومران في العمل الفني ، ودراية باسلوب التلويح والتعريض البعيد عن الخطابة . وحين يكون المنطلق النظري للقاص خاطئا في التصور ، مستعمرا للقوالب الفكرية الجاهزة ، والمواقف المسبقة ، فعليه لكي يقنعنا ، ان يمنحنا فنا تتسرب منه فكرته في طلاقة ويسر ، لا في خطابة تطن فيها السباب .

واخيرا ماذا يريد الدكتور جورج حنا ان يمنحنا في تقريره السياسي ؟ ايريد ان نشفق على الفتى الفار الجبان لانه من الجيش العثماني ، اذلك مسوغ مقبول ؟. ام يريد منا ان نبصق على الاستعمار البغيض ؟... اننا لن نتخلف ، وقد بصقنا من قبل في وجه فرنسة وغيرها ، ولكن رطلا من بصاق لا يبني عملا فنيا .

٥) ـ بالنسبة للمسرحية اعتذر لاخي نديم عن تخلفي ، وارجو ان ارسل اليه النقد في رسالة خاصة مع تحيتي اليه في غربته .

حلب — منير العكش